أسباب انتصار الكافر على المسلم، وغلبة القوة على الحق عند بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د. محمد فرقاني
جامعة الأمير عبد القادر

مر على المسلمين في القرون الأخيرة من التخلف والضعف ما الله به عليم، بعد تلك القرون التي كانت لهم فيها القوة والعزة والمنعة، حين أصبحوا فيها نهبة لكل ناهب وأكلة لكل آكل، وهزيمة تتلوها هزائم، ومحنة تتلوها محن، الأخيرة منها تنسيهم ما حصل لهم في الأولى، مستسلمين للغفلة، وإن من بين مظاهر هذا الضعف: شدة الاختلاف وكثرة التدابر، والتقاطع، آلم هذا الوضع قلة من العلماء الذين بدأوا يتحسسون طريق الخلاص بمحاولاتهم الموزعة مكانا وزمانا لإصلاح الحال وتقويم الاعوجاج بحسب الجهد والطاقة. ولكنهم لم يجدوا من يشد أزرهم، بل توبعوا بحجة تدخلهم فيما لايعنيهم، إذ ظن الكثير من الساسة الذين وصلوا إلى الحكم دون أن يكونوا في مستوى أممهم أن السياسة لايعضدها علم ولا عالم، فتحولوا من محاربة التخلف، والنهوض بأممهم في الداخل، ومحاربة الأعداء في الخارج بما تقتضيه طبيعة المرحلة من وسائل المحاربة، إلى تفكيك الأمة بمختلف وسائل التفريق والتمزيق، عن قصد وعن جهل، بل أصبح الصمت على العيوب والأخطاء ذريعة لتكريسها بحجة درء الفتنة.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين كان لهم شرف رفع لواء إصلاح الحال وتقويم الاعوجاج في القرن العشرين الشيخ العالم بديع الزمان سعيد النورسي[1]، فكان من غاياته التي وضعها بين عينيه ووقف عليها عمره، ترشيد سياسة تركيا وإنقاذ الإيمان في النفوس وترسيخ الدين في القلوب، وإصلاح مناهج التعليم، وتنوير الفكر.

وقد سئل –رحمه الله– عن أشياء كثيرة من أمر الدين والدنيا على السواء من أفراد عاديين، وطلاب علم، وسياسيين، ومن الكنيسة، ومن بين القضايا التي سئل عنها قضية:« "الحق يعلو" أمراً حقاً لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافرُ على المسلم، وتغلُب القوة على الحق؟».

وهي قضية شغلت بال المسلمين قبل زمنه[2] وفي أيامه وتطرح اليوم مجددا وبقوة؛ حتى أصبحت لصيقة بكل المسلمين أفرادا وجماعات ودولا، وكأن غيرهم من الأمم

---

[1] ولد بديع الزمان سعيد النورسي سنة 1294 هـ، الموافق لسنة1877م من أسرة كردية في قرية "نورس" التابعة لولاية "بتليس" شرق تركيا. ظهرت عليه علامات النبوغ والذكاء منذ طفولته حفاظا لما يسمعه ويلقى عليه. استوعب كل المقررات الدراسية التي كانت متداولة في المدارس العلمية في منطقته من علوم شرعية وعلوم حديثة؛ حتى صار عالما بارزا. دخل في صراع مع السلطنة العثمانية، ثم قاتل الروس في الحرب العالمية الأولى، في أثناء ذلك وهو بين الخنادق ألف كتابه" إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، ثم قبض عليه الروس ونفي إلى سيبيريا، ثم فر من هناك إلى بولندا، ثم النمسا، ومنها عاد إلى استامبول سنة 1918.

ثم اصطدم مع مصطفى كمال أتاتورك الذي أصبح "الرجل الأوحد" في البلاد.الذي عادى كل ما له صلة بالإسلام؛ بل توسعت الدعوة إلى الزيغ والضلال وإفساد الأخلاق في عهده وبمباركة منه ليلتحق بركب أوروبي زعمه، ولا غرابة أن حصل منه ذلك إذ كان من غير صلبية الشعب التركي، أما وأنه قد جاهر بذلك، وسخر لتكريسه كل إمكانات الدولة، فقد جاهر الشيخ سعيد النورسي بعدائه له كذلك، فلحقه من جراء هذه المواقف الإيمانية الكثير من الأذى، فعانى ما عانى من آلام الغربة في المنافي البعيدة، بعد السجون المظلمة والمحاكمات المتتالية أيام أتاتورك وبعد موته، لكنه لم يستسلم، لأن غايته نبيلة وشريفة وهي خدمة حقيقة القرآن الكريم وتعليمها للناس، فقد تصدى للأفكار الدخيلة على المسلمين وصحح ما يحتاج منها إلى تصحيح، وبصر الحائرين، وجادل المشككين والمعاندين والزائغين الذين يهيمون في بيداء الظلال، إذ قدم الأدلة القوية التي ترسخ الإيمان. وجمع ذلك كله في رسائله المعروفة بـ"رسائل النور" التي تتميز بالدقة في التعبير وسلامة العرض، وبالمحاكمة العقلية والنفحات الوجدانية الإيمانية، حتى توفاه الله سنة 1379 هـ الموافق لسنة 1960م. بديع الزمان سعيد النورسي: سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، طبع شركة سوز لر القاهرة، سنة 2000م (بتصرف).

[2] تعجب المسلمون بعد النكسة التي حصلت لهم في غزوة أحد كيف يسلط الله الكافر على المؤمن، وكيف عمهم بهذه العقوبة، فأزال الله تعالى هذا التعجب، إذ أتاهم الجواب منY [أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ

هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ]سورة آل عمران، الآية:165، بل بين المولى عز وجل لهم ذلك في آية سابقة أسباب هذه النكسة فقال: [وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ].سورة آل عمران، الآية:152.

ثم منّ الله على المؤمنين، أن تدارك أمرهم بالحماية لأن الخطأ الذي تسبب فيه البعض دون الكل كان بسبب الغنيمة(الدنيا)؛ فإن شأن الحرب الطاعة للقائد من دون تأويل، لأن الله تعالى حقق وعده لهم بالنصر أولا، ثم لم يتحقق كاملا لإخلال البعض بشروطه إلى غاية نهاية الحرب.

ويقول الفخر الرازي:«... فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم، وتقولون: كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم، بانطباق سنة الله عليكم، حين عرضتم أنفسكم لها، فالإنسان حين يعرّض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه: مسلماً كان أو مشركاً، ولا تنخرقُ محاباة له، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداءً!...ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته، وأن يحكم ناموسه، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته، وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث». مفاتيح الغيبالتفسير الكبير، طبع: دار إحياء التراث العربي بيروت 1420 هـ،ج9، ص422

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور:« أن تعهد الله لهم بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم أخذ العدة المعروفة... التي هي أسباب ناط الله تعالى بها مسبباتها على حسب الحكمة التي اقتضاها النظام الذي سنه الله في الأسباب ومسبباتها، فتطلب المسببات دون أسبابها غلط وسوء أدب مع خالق الأسباب ومسبباتها...» التحرير والتنويرتحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، طبع: الدار التونسية للنشر تونس1984 هـ، ج 2، ص12، ج 4، ص129130

ويقول سيد قطب معلقا عن أحداث غزوة أحد: «هذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة، وهو يربيها بأحداث معركة أحد وبالتعقيب على هذه الأحداث. حينما غفلت عن تلك الحقيقة الأولية أو نسيتها وفهمت أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتماً بغض النظر عن تصورها وتصرفها حينئذ تركها الله تلاقي الهزيمة وتعاني آلامها المريرة». في ظلال القرآن طبع: دار الشروق بيروت القاهرة 1412 هـ،ج1، ص 528.

أما ابن القيم فقد أورد كلاما مهما حول هذا الأمر فقال:« أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيرا من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين. فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: [وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ] سورة المنافقون، الآية:8، وقوله:[وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ] سورة الصافات، الآية: 173، وقوله [كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي] سورة المجادلة، الآية: 21... ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فإنا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر، والقرآن لا يرد بخلاف الحس، ويعتمد على هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى. فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب: فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها الباطل. فإذا ذكر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط....والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه بدينه علما وعملا، لم يضمن نصر الباطل، ولو اعتقد صاحبه أنه محق، وكذلك العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال، قال تعالى: [وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] سورة آل عمران، الآية 139. فللعبد من العلو

لانتطاحم الهزائم وفي رخاء واستقرار، ولا تغلب قوة غيرهم حقهم، وهو إفك افتراه من يعادي هذا الدين ولا يود أن يرى أتباعه يمتلكون القوة والمنعة والسؤدد. جواب الشيخ عمن سأله عن أسباب انتصار الكافرُ على المسلم، وغلبة القوة على الحق:

قال: «أيها الصديق! سألني أحدهم ذات يوم:لما كان " الحق يعلو" أمراً حقاً لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافرُ على المسلم، وتغلُب القوة على الحق؟.

قلت: تأمل في النقاط الأربع الآتية، تنحل المعضلة.

-**النقطة الأولى**: لا يلزم أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كل حقٍ حقاً، كما لا يلزم أيضاً أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كلِ باطلٍ باطلاً[1].

بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: [وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ] .سورة المنافقون، الآية 8 .فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان، علما وعملا ظاهرا وباطنا، وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالى:[إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا] سورة الحج، الآية 38.فإذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص إيمانه.

....وكذلك النصر والتأييد الكامل، إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: [إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ] سورة غافر، الآية 51، وقال:[فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ] سورة الصف، الآية 14 .فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هيبذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه.وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: [وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً] سورة النساء، الآية 141. ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الحجة.

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى. فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور، مكفى، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهرا وباطنا. وقد قال تعالى للمؤمنين: [وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]. سورة آل عمران، الآية: 139، فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جند من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذ كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره.إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبع: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.د.ت، ج2، ص 177182

[1] تأمل ما ذكره ابن قيم الجوزية .

فالنتيجة إذن: أن وسيلةً حقة -ولو كانت في باطل- غالبةٌ على وسيلةٍ باطلة -ولو كانت في الحق-

وعليه يكون:حقٌ مغلوب لباطل، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة، أي مغلوبٌ مؤقتاً، وإلاّ فليس مغلوباً بذاته، وليس دائماً، لأن عاقبة الأمور تصير للحق دوماً.

أما القوة، فلها من الحق نصيبٌ، وفيها سرٌّ للتفوق كامنٌ في خلقتها.

-**النقطة الثانية**: بينما يجب أن تكون كلُّ صفةٍ من صفات المسلم مسلمةً مثله، إلا أن هذا ليس أمراً واقعاً، ولا دائماً!

ومثله، لا يلزم أيضاً أن تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره. وكذاالأمر في صفات الفاسق، لا يشترط أن تكون جميعُها فاسقة، ولا ناشئة من فسقه.

إذن، صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفةٍ غير مشروعة لدى المسلم، وبهذه الوساطة-والوسيلة الحقة- يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم-الذي يحمل صفة غير مشروعة-.

ثم إن حق الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع، والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامة والذي ينطوي على سر الحكمة في الخلق.

-**النقطة الثالثة**: لله-سبحانه وتعالى- تجليان يتجلى بهما على المخلوقات، وهما تجليان شرعيان صادران من صفتين من صفات كماله جل وعلا.

-**أولهم**: الشرع التكويني، أو السنة الكونية، الذي هو المشيئة والتقدير الإلهي الصادر من صفة" الإرادة الإلهية " .

والثاني: الشريعة المعروفة الصادرة من صفة"الكلام الرباني"، فكما أن هناك طاعةً وعصياناً تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعةٌ وعصيانٌ تجاه الأوامر التكوينية، وغالباً ما يرى الأول-مطيع الشريعة والعاصي لها- جزاءه وثوابه في الدار

الآخرة. والثاني-مطيع لسنن الكونية والعاصي لها- غالباً ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصرُ.

وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتَّسَفُّلِ.

كذلك ثواب السعي الغنى.

وثواب الثبات التغلب.

مثلما أن نتيجة السمِّ المرضُ.

وعاقبةَ الترياقِ والدواء الشفاء والعافية.

وتجتمع أحياناً أوامر الشريعتين معاً في شئ..فلكلٍ جهة.

فطاعةُ الأمر التكويني الذي هو حق، هذه الطاعة غالبة، لأنها طاعة لأمر إلهي، على عصيان هذا الأمر بالمقابل، لأن العصيان- لأي أمر تكويني- يندرج في الباطل ويصبح جزءاً منه.فإذا ما أصبح حقٌ وسيلةً لباطلٍ فسينتصر على باطلٍ أصبح وسيلةً لحق، وتظهر النتيجة:

حقٌ مغلوب أمام باطل! ولكن ليس مغلوباً بذاته، وإنما بوسيلته. إذن فـ" الحق يعلو" يعلو بالذات، والعقبى هي المرادة-فليس العلو قاصراً في الدنيا-إلاّ أن التقيّد والأخذ بحيثيات الحق مقصود ولابد منه.

-النقطة الرابعة:

إن ظلَّ حقٌ كامناً في طور القوة- أي لم يخرج إلى طور الفعل المشاهَد- أو كان مشوباً بشئ آخر، أو مغشوشاً، وتطلّب الأمر كشف الحق وتزويده بقوة جديدة، وجعله خالصاً زكياً، يُسَلَّط عليه مؤقتاً باطلٌ حتى يخلُص الحق- نتيجة التدافع- من كل درن فيكون طيباً، ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جداً.

فإذا ما انتصر الباطل في الدنيا-في مكان وزمان معينين- فقد كسب معركة ولم يكسب الحرب كلها، لأن" العاقبة للمتقين" هي المآل الذي يؤول إليه الحق.

وهكذا الباطل مغلوب–حتى في غلبه الظاهر– وفي" الحق يعلو" سرٌّ كامن عميق يدفع الباطل قهراً إلى العقاب في عقبى الدنيا أو الآخرة، فهو يتطلع إلى العقبى. وهكذا الحق غالب مهما ظهر أنه مغلوب»[1]!.

ذلك هو الحق أنه لا نصر ولا هزيمة أو تخلف دون سبب وضحها هذا العلم المؤمن في هذه القواعد الأربعة من أخذ بها سار النصر في ركابه، ومن أخل بها كانت الهزيمة لصيقة به أبد الدهر.

والأيام في هذه الحياة دول، والدنيا عرض حاضر، يقسمها المولى –عز وجل– دولا بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.فالجنة نعمة ونصر وسرور، وجهنم عقوبة وهزيمة وحسرة وعذاب دائم.

---

[1] بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، طبع: شركة سوزلر للنشر، ط3، 1421هـ/2000م، ص871873.